لحظة .. تمنيت فيها أن لا أكون معلمة!

فدوى ربيع

لن أغوص في أعماق بحر حياتي، ولكنني سأقف عند الشاطئ؛ لأتحدث عن بعض نقاط التحول والتغيير في حياتي. في الجزائر بدأت حياتي وميلادي، ثم انتقلت برفقة الأهل إلى السعودية، حيث تلقيت التعليم الأساسي والإعدادي، وأكملت الصف العاشر في دولة اليمن على الرغم من وجود الصعوبات في تغيير المنهاج والصداقات والمدرسة، بعد ذلك أنهيت الدراسة الثانوية في الأردن.

التحقت بكلية متوسطة لدراسة اللغة العربية، ولكن نداء العودة للوطن حان، فقرر والدي العودة لأرضنا في فلسطين، فالتحقت بكلية قريبة من السكن لإتمام الدراسة، ولسوء الحظ لم يتوفر تخصص اللغة العربية في الكلية، لذلك قررت دراسة تربية الطفل، وأنهيتها بسلام ونجاح.

ارتباط العائلة وإنجاب الأبناء عزلني قليلاً في بداية حياتي عن الناس، وعن الرغبة في اللجوء إلى عمل، إضافة إلى عدم الحاجة المادية للعمل، لكن شاءت الظروف والأقدار بعد سنوات قليلة أن أضطر للعمل، وفعلاً قررت أن التحق بمهنة التدريس التي طالما حلمت وأنا صغيرة بأن أمارسها، وأن أتقمص شخصية والدتي وهي تدير المدرسة التي كنت أتلقى تعليمي الأساسي فيها.

كنت أجمع الأطفال في غرفتي، وأقوم بدور المعلمة في الكتابة على السبورة وحمل العصا، وفعلاً كانت البداية مع مدرسة للذكور تابعة لوكالة الغوث، عانيت فيها الكثير بسبب صعوبة التعامل مع الذكور؛ ولعدم وجود الخبرة لدي في مواجهة مواقف مع هذه الفئة من الطلبة، ثم انتقلت إلى وزارة التربية والتعليم، أدرّس في مدرسة أساسية، وما زلت حتى الآن أعمل فيها.

بدأت التدريس وأنا أستعين بوالدتي ووالدي في كثير من الأمور، وبخاصة طريقة التحضير، وحاولت إعادة عمل وسائل تعليمية كانت والدتي أنجزتها خلال فترة عملها كمديرة، واستشارة والدي في كثير من قواعد اللغة العربية وطريقة طرحها على الطلاب، فدعمه المعنوي جعلني قادرة على الوصول إلى الأفضل دائماً.

هنا بدأ إلحاح والدي عليّ لإتمام التعليم الجامعي، وفعلاً عدت لدراسة اللغة العربية، وحصلت على شهادة البكالوريوس خلال تدريسي على الرغم من صعوبة التوفيق بين التعليم في الجامعة والتدريس في المدارس.

رحلة التدريس فيها الكثير من المواقف والمحطات التي تأسر العقل عند الوقوف إليها، فتوصيل المعلومة لطلاب يختلفون في القدرات في العمر أمر، ليس بالسهل، ولكن الأسلوب والطريقة، والبحث، والمحاولة، وإشراك الطلبة أنفسهم بالبحث يجعل الوصول إلى الغاية أسهل وأنجح.

مستويات الطلبة مختلفة جداً، منهم الذكي والمتمرد وذو الاحتياجات الخاصة، وهنا يأتي دوري كمعلمة ومربية للأجيال، أتعلم أنا وأعلم غيري. حياة خاصة داخل غرفة المعلمات، فهناك عالمٌ آخر، وخبرة جديدة، وقدرة على حل المشاكل وخلق علاقات ودية جميلة.

كل سنة جديدة في مهنة التدريس تعلمني الجديد، وتغذي عقلي، لأنشئ جيلاً جديداً مبدعاً، على الرغم من كل ما يلقاه المعلم من متاعب إلا أنها مهنة لها مذاقها الخاص، فلا يضاهيه مذاق في أي مهنة أخرى.

تتلخص خبرتي في التدريس طيلة تسع سنوات في كلمات وعبارات

لها مضمون ومفهوم عميق، ربما لا يشعر به الأشخاص بالدرجة نفسها؛ لاختلاف الأجناس والقدرات والآراء، فكل إنسان في حياته له نهج خاص، يمشي ويبني قناعته بناء عليه، فالسنة الأولى من التدريس أكسبتني الصمود والثبات على الحق، وبخاصة بعد تعرضي لموقف محرج مع طالب من الصف السادس في مدرسة أساسية مختلطة. يتهيأ الطلبة لامتحان يومي في حصة اللغة العربية، دخلت الصف كالعادة ألقيت التحية، وطلبت من الطلبة تحضير الأدوات وإغلاق الكتب، ووزعت أوراق الامتحان، وبدأ الطلبة بتقليب الأوراق وسرق الأنظار حول الأسئلة، وأثناء سير الامتحان لاحظت طالباً يجلس في المقعد الأمامي، يحاول أن يلتفت يميناً ويساراً، لعله يجد منقذاً له من مأزق الإجابة عن الأسئلة.

لفتُّ انتباهه أكثر من مرة، وأن يجعل عينيه في ورقته فقط، لكنه كان يعبر عن ضعفه الأكاديمي بقوة ألفاظه، فإذا يسلمني الورقة بيضاء، ولم يجب عن أي سؤال. فقلت: ما هذا؟ لماذا لم تجب عن الامتحان؟ فأجابني إجابة سخيفة، وبكلمة غير مهذبة، فلم يكن مني إلا أن أمسكت بالورقة ومزقتها وألقيتها في سلة المهملات، وفي لحظة، شعرت بالانهيار ورغبة في البكاء، لأنني لم أعرف كيف أتصرف في هذا الموقف.

فكرت بيني وبين نفسي، لو حاولت ضربه، ربما يرد لي الصفعة، فلا أريد أن أعرض نفسي بموقف محرج كذلك، فالغريب بالأمر أن اليوم التالي جاء والده إلى المدرسة، وهو يصرخ بأعلى صوته: لماذا مزقت ورقة ابني في الامتحان؟ من أنت لتمزقيها؟ وكأنه لا يعلم ماذا فعل أبنه؟ وماذا قال للمعلمة؟ لن أبالغ إذا قلت إنني في تلك اللحظة تمنيت، لو أنني لم أكن، وبخاصة أنني لم أجد من يقف بجانبي، شعرت وقتها، بأن علي أن أواجه المواقف وحدي، دون الاعتماد على إنسان آخر.

بدأت من هذا الموقف، رحلة الصمود أمام الحياة، وبخاصة داخل المدرسة وخارجها.

لا تسألوني عما حدث للطالب، لأنه لم يحل بالنسبة لي، أما بالنسبة للمديرة فما كان منها إلا أن قدمت الاعتذار والأسف، للأب وأبنه، دون أن تعيرني أي اهتمام . . . هكذا هي الحياة.

في السنة الثانية بدأت التفاعل مع الآخرين، والتأقلم معهم، ثم أصعد السلم في السنة الثالثة لأصل إلى النجاح كمعلمة ومربية، وفي السنة الرابعة بدأت رغبتي بالتجديد والتغيير في كل ما هو نافع لي كمعلمة وللطالب، ثم صعدت مجدداً للسنة الخامسة عندما بدأت أستقل بذاتي وأفكاري وذاتي إلى أن أوصلتني إلى السنة السادسة التي أعادت لي الحياة برفقة الابتسامة في كل ما هو جميل من حولي، وأن الأمل هو دربي الوحيد للوصول في مهنتي وحياتي لأتسلق السنة التي تليها "السابعة"، لأجد نفسي أعيش بين أسرتي وذاتي داخل الصف مع طلبتي ومادة اللغة العربية والتربية الإسلامية، وأصعد مرة أخرى إلى السنة الثامنة وهنا بدأت أشعر بضرورة العدل والمساواة في حياة المعلم وما يتقاضاه مقابل هذا الجهد العظيم، ولكن للأسف لم أجد حقاً من يعطي المعلم حقه. أما السنة التاسعة، فأنا أبدأها بأمل جديد وأمنية جديدة لي ولكل معلم مخلص في عمله.

فدوى ربيع
مدرسة قلنديا الأساسية المختلطة

من اللقاء الثاني لمشروع الطفولة المبكرة والثقافة العلمية الذي نظمه المركز في مقر المؤسسة في رام الله.